الباب التاسع

مصر فى العصر العباسى الثانى

(الدول المستقلة)

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

نبذة عن العصر العباسى الثانى وظهور الدولة المستقلة

استمرت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية حتى بداية العصر العباسي الثاني حيث بدأ الضعف يدب في الخلافة العباسية مما ساعد على ظهور ماعرف بالدول المستقلة في مصر وغيرها من الولايات الإسلامية.

ويمكن أن نرجع ذلك إلى سببين رئيسيين، وهما:

1. ضعف الخلفاء في العصر العباسي الثاني
2. استعانة الخلفاء العباسيون بالموالي كالفرس والترك.

نفهم من ذلك أن مصر ظلت ولاية عباسية تابعة للحكم المباشر للخلافة العباسية في الفترة بين 132هـ وحتى 254هـ وهو تاريخ قيام الدولة الطولونية في مصر، ثم توالت الدول المستقلة في مصر حتى دخول سليم الأول مصر عام 1517م وضم مصر إلى الدولة العثمانية.

ويمكن تتبع ترتيب الدول المستقلة التي قامت في مصر في العصر العباسي الثاني من خلال الجدول التالي:

الدولة	فترة حكمها
الطولونية	254هـ – 292هـ
الحكم العباسي المباشر	292هـ – 323هـ
الإخشيدية	323هـ – 358هـ
الفاطمية	358هـ – 567هـ
الأيوبية	567هـ – 648هـ
المملوكية	648هـ – 923هـ

وكان استقلال هذه الدول عن الدولة العباسية له شكلان:

- الأول: الاستقلال بمصر وخراجها وجيشها مع الاحتفاظ بالتبعية للخليفة العباسي اسمًا فقط.
- الثاني: الاستقلال عن الدولة العباسية تمامًا والخروج عن تبعية الخليفة العباسي نهائيًا وسنتناول في فصول هذا الباب كل دولة منها بإيجاز غير مخل.

obeikan.com

الفصل الثانى

الدولة الطولونية (254هـ-292هـ)

• أحمد بن طولون:

تُنسب الدولة الطولونية إلى مؤسسها أحمد بن طولون، وهو تركي الأصل، تدرج في المناصب وخدمته الظروف حتى أصبح من أهم جند الخلافة وأكثرهم ثقة عند الخليفة العباسي المستعين ومن بعده الخليفة المعتز.

والمتعارف عليه أن الخليفة كان يعين واليًا على كل ولاية، إلَّا أن هذه الفترة قد استحدث فيها أمرًا جديدًا عند الولاة اذ كان كل وال يفضل البقاء في سامراء جوار الخلافة ويرسل من ينوب عنه في إدارة الولاية.

كان باكباك واليًا على مصر من قبل الخليفة العباسي، وهو تركي الأصل أيضا، ويبدو أن علاقة قرابة قد جمعت بين باكباك

obeikan.com

وأحمد بن طولون، حيث تزوج باكباك من أم أحمد بن طولون، وعلى أي حال، فقد قام باكباك بإرسال أحمد بن طولون لينوب عنه في حكم مصر وضم إليه الجيش.

وصل أحمد بن طولون إلى مصر في رمضان 254هـ، ومن ضمن الظروف التي خدمت أحمد بن طولون في مصر، أن مكانته وقوته قد زادت في مصر بعد وفاة الخليفة المعتز العباسي وتولية المهدي الذي كان ناقمًا بدوره على باكباك فعزله وعهد إلى يارجوخ بحكم مصر، وصب ذلك في مصلحة ابن طولون حيث كان في علاقة مصاهرة مع يارجوخ فزوجة أحمد بن طولون هي ابنة ليارجوخ، وبذلك أصبح يارجوخ أكبر عون لأحمد بن طولون في مصر.

استطاع أحمد بن طولون التصدي لكل العناصر التي حاولت النيل منه وهزم كل معارضيه في مصر واستطاع أن يضم الشام وبرقة وغيرها إلى حكم الدولة الطولونية.

أما عن أهم أعمال أحمد بن طولون في مصر، فقد قام ببناء حاضرة جديدة لمصر بعد أن ازدحمت الفسطاط ولم تعد تتسع لجنده الترك، وسار أحمد بن طولون على نفس سياسة أسلافه في أن تكون عاصمة مصر في الموضع الذي يقع بين الوجهين البحري

والقبلي، فقام أحمد بن طولون ببناء مدينة القطائع بجوار المقطم حيث تتسع لجنده، ولتجديد شخصية مصر بعد أن قامت فيها دولة تسيطر على بعض ولايات الدولة العباسية مثل الشام والثغور الشامية وبرقة وطرابلس والحجاز.

ويبدو ان اسم القطائع مشتق من قطعة، حيث قسمها ابن طولون إلى قطع لتقيم كل طائفة في إحداها.

شيَّد أحمد بن طولون قصرا ضخما في القطائع، وبما ان العاصمة الجديدة لايكتمل بناؤها في الدولة الإسلامية بدون مسجد جامع، فقام ابن طولون ببناء الجامع الكبير الذي يعرف باسمه ولايزال قائما حتى اليوم، ويمتاز عن غيره من الجوامع بالمأذنة ذات السلالم الخارجية.

وفي سنة 270هـ اشتد المرض على أحمد بن طولون حتى تُوفى، وكانت ولاية عهده لابنه خمارويه من بعده.

• خمارويه بن أحمد بن طولون:

تَّولى خمارويه حكم مصر خلفًا لأبيه أحمد بن طولون، وكانت أمور الدولة مستقرة وخزائنها ممتلئة.

حاول الخليفة العباسي المعتضد استعادة السيطرة على مصر

مرة أخرى إلَّا أن خمارويه استطاع هزيمته، والحفاظ على دولته كما ورثها من أبيه دون نقصان.

قرر خمارويه أن يطلب الصلح من الخليفة العباسي ويبدو أن الخليفة قد وافق على طلب الصلح لما أدرك قوة خمارويه وتمكنه من إدارة دولته، وأعطى الخليفة مرسومًا بتعيين خمارويه وولده ثلاثين سنة، حكم مصر والشام والثغور.

ولتدعيم العلاقات بين خمارويه من جهة والخليفة المعتضد من جهة أخرى، فقد تزوج الخليفة العباسي من قطر الندى ابنة خمارويه، ومازال حفل زفافهما يضرب به المثل في الفخامة والتكلفة حتى اليوم.

خلاصة القول أن خمارويه كان أميرًا قويًا حافظ على أملاك الدولة الطولونية بل وزاد فيها، كما نجح في تحسين علاقته مع الخليفة العباسي، إلَّا أنه أنفق أموالا طائلة في زواج ابنته قطر الندى من الخليفة العباسي حتى مات وخزائن الدولة شبه خاوية.

كان خمارويه يعيش في ترف ونعيم، فكان يسكن القصر سنة واحدة ويلبس الثوب يوما واحدا، ويركب الحصان شهرًا واحدًا.[1]

1– أ.د. عصام الدين عبد الرءوف – مصر الإسلامية – ص104

عُرِفَ عن خمارويه شغفه بصيد السباع (الأسود)، وأقام لها بيوتًا خاصة، إلَّا أنه لم يكن مثل أبيه في معاملة الرعية، فعرف عنه القسوة عليهم في جمع الأموال أو في إنزال العقوبة بمخالفيه.

بوفاة خمارويه سنة 292هـ، تدهورت أحوال الدولة الطولونية، وحكم البلاد هارون بن خمارويه، فاستصغره الجند وقرروا خلعه ومبايعة أخيه ربيعة، إلَّا أن حركتهم فشلت.

مع هذا الاضطراب وجد الخليفة العباسي الفرصة سانحة أمامه لاستعادة الحكم العباسي المباشر على مصر مرة أخرى فأرسل إلى مصر جيشًا على رأسه محمد بن سليمان الكاتب الذي استطاع هزيمة الجيش الطولوني وأمر أصحابه بحرق القطائع ونهب الفسطاط، وقد طاف الكاتب بالفسطاط وأطلق سراح من في السجون، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي المكتفي أمير المؤمنين، وعهد الكاتب إلى ولاة من قبله بحكم بلاد الشام وولاياتها، وأخرج من الفسطاط ولاة بني طولون ومواليهم فلم يبق في مصر منهم أحد وخلت منهم الديار، وعفت منهم الآثار وخلت منهم المنازل، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل.[1]

1- أ.د.عصام الدين عبد الرءوف – المرجع السابق – ص107

أصبح بذلك محمد بن سليمان الكاتب أول والٍ على مصر بعد زوال الدولة الطولونية، ورجوع مصر إلى الحكم العباسي المباشر من جديد.

obeikan.com

الفصل الثالث

الدولة الإخشيدية (323هـ- 358هـ)

• محمد بن طغج الإخشيد:

تنسب الدولة الإخشيدية إلى أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين، وجده من ملوك فرغانه ببلاد ما وراء النهر، فهو تركي الأصل.

كان أبوه طغج يعمل لدى الدولة الطولونية، ومات في سجن وزير الدولة العباسية العباس بن الحسن سنة 294هـ، فدخل محمد في خدمة الدولة العباسية وبالتالي كان في خدمة الولاة العباسيين في مصر وهما بسطام ثم تكين.

يبدو أن لقب الإخشيد قد خلعه الخليفة العباسي لمحمد بن طغج لشجاعته في صد الهجمات الفاطمية التي جاءت من الغرب على مصر في هذا الوقت، والإخشيد لقب يعني الملك اشتهر به ملوك فرغانة في بلاد ماوراء النهر.

obeikan.com

تطورت الأحداث السياسية في بغداد، وولي القاهر الخلافة، فأرسل إليه الإخشيد يلح عليه بتقليده ولاية مصر، وأرسل له مالا كثيرًا، فوافق القاهر وأصدر تقليدا للإخشيد بولاية مصر بدلا من محمد بن تكين، ودعا له على المنابر إلَّا أن القاهر عاد وأرسل تقليدا بولاية مصر لابن كيغلغ بدلا من الإخشيد.[1]

لم تلبث العلاقات بين الإخشيد وبين الخلافة العباسية أن تحسنت، حيث تزوجت ابنة الإخشيد من أبي الفضل بن جعفر وزير الدولة العباسية، فصدر بعدها تقليد من الخلافة العباسية بعودة محمد بن طغج الإخشيد لحكم مصر.

على أي حال استطاع الإخشيد اعادة الأمن والنظام بعد صد هجمات الفاطميين، واستطاع مد نفوذ دولته حتى شملت مع مصر الشام والحجاز وبرقة، وقد تحسنت في عهده أحوال مصر الاقتصادية، واتخذ من مدينة العسكر حاضرة لدولته.

• أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد:

تُوفي الإخشيد سنة 325هـ فبايع أهل مصر ابنه أبو القاسم أنوجور والذي اتسم بالضعف ولم يقدر على إدارة شئون الحكم والامارة.

1- أ.د. عصام الدين عبد الرءوف – المرجع السابق – ص111

كان أنوجور يواجه العقبات في حكمه من رجال الدولة، فكان في خلاف دائم مع كافور الذي كان يسعى إلى إضعاف أنوجور ليخلو له الجو ويحكم مصر.

تُوفي أنوجور سنة 394هـ وخلفه أخوه علي بن الإخشيد ففعل معه كافور مثلما فعل مع أخيه من قبل، وتوفي 355هـ ودُفن في بيت المقدس بجوار أبيه وأخيه.

• كافور الإخشيدي:

كان كافور عبدًا أسودًا تولى تربية أبناء الإخشيد وأصبح من كبار قواده، وجعله الإخشيد وصيًا على أبنائه، ويبدو أنه قد شاركهم ملكهم أو انتزعه منهم بالقول الأرجح.

استبد كافور بأمور البلاد بعد وفاة علي بن الإخشيد ودعى باسمه على المنابر، واعترف به الخليفة المطيع وخلع عليه، رغم أنه كان عبدا غير حر سيق من السودان.

كان كافور يتودد إلى الخلافة العباسية، وفي نفس الوقت يتظاهر بالوفاء والإخلاص للدولة الفاطمية في المغرب حتى يضمن الاستقرار في حكمه وعدم الدخول في حرب مع إحدى هاتين الدولتين.

ومما قاله المتنبي في كافور:

من علَّم الأسود المخصي مكرمة؟! أقومه البيض أم أباؤه السود

وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ونستخلص من البيتين السابقين للمتنبي مدى بغضه على كافور، وإن دل ذلك فيدل على استبداده وظلمه للناس.

على أي حال تُوفي علي بن الإخشيد وتولى الحكم بعده ابنه أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، وقد نقص النيل في عهده، وذكر الكندي ان الناس بسبب هذه المجاعات أكلوا الكلاب والقطط، وفي سنة 358هـ، سار جوهر الصقلي إلى مصر وضمها إلى أملاك الدولة الفاطمية التي كانت قد قامت في المغرب معلنا بذلك سقوط الدولة الإخشيدية.

openkan.com

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية فى مصر

• **قيام الدولة الفاطمية في المغرب:**

منذ أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري، أصبحت بلاد المغرب محط اهتمام الشيعة، وكان أهل هذه البلاد اذهانهم مهيأة للاستماع إلى الدعوة لال البيت منذ أن نجح الأدارسة الحسنيين في تكوين دولتهم هناك.

بدأت الدعوة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب على يد أحد الدعاة لها عرف بأبي عبدالله الشيعي، وهو عراقيًا شيعيًا هاجر إلى بلاد المغرب بسبب تضييق الدولة العباسية على المذاهب الشيعية ودعاتها، وكانت بلاد المغرب بعيدة عن سيطرة الدولة العباسية.

ومن المعروف أن الشيعة مذاهب متعددة ولكل مذهب منها إمام مختلف، ويبدو أن أبو عبد الله الشيعي كان على المذهب

الإمامي الإثنى عشري، إلَّا أنه تحول إلى المذهب الإسماعيلي بعد وفاة الإمام محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر للشيعة الامامية، والمذهب الإسماعيلي هو مذهب الدولة الفاطمية.

بعدما استقرت الأمور لأبي عبد الله الشيعي في بلاد المغرب، وزاد عدد أنصاره، وأصبحت الأمور مهيئة لقدوم الإمام المنتظر لهذه الفرقة، طلب أبو عبد الله الشيعي من المهدي القدوم إليه حيث أن الأمور قد استقرت.

وصل المهدي إلى أفريقية وتسلم مقاليد الحكم من أبي عبد الله الشيعي وأصبح أول الخلفاء للدولة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب.

أما عن سبب تسمية الدولة بالفاطمية، فيرجع إلى أن مؤسسيها نسبوا أنفسهم إلى نسل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وأله وسلم)، وزوج الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، والأرجح عندنا هو ما قاله سواد العلماء في هذا النسب، أن نسبهم هذا مشكوك في صحته، حتى أن العزيز بالله بن المعز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها هذه الأبيات:

إنـــا سـمـعـنـا نـسـبـا مـنـكـرا يـتـلى عـلى المـنـبر في الـجـامـعِ
إن كـنـت فـيـما تـدعـي صـادقـا فـاذكـر أبًـا بعد الأب السابعِ
وإن تـــرد تـحـقـيـق مـا قلته فانسب لنا نفسك كالطائعِ
أولا دع الأنـــسـاب مـسـتـورة وأدخـل بنا في النسب الـواسـعِ
فـإن أنـسـاب بني هاشم يقصر يـقـصر عـنـهـا طـمـع الـطـامـعِ

فالأدق هو تسمية دولتهم بالدولة العبيدية نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة، ولكن اسم الدولة الفاطمية هو الأشهر على مسامع الناس .

على أي حال كان المهدي هو أول خلفاء الدولة الفاطمية، وشرع في بناء حاضرة جديدة لدولته لتكون مركزًا للدعوة الشيعية وحصنًا يحتمي به الفاطميون وقت الحاجة من غضبة أهل المغرب، واختار عبيد الله المهدي لها اسم المهدية نسبةً إلى لقبه، كما أن الموقع الذي تم اختياره لبناء المهدية كان بعيدًا عن القيروان التي كانت تعتبر مركزًا لأهل السنة من المالكية.

الغزو الفاطمي لمصر:

بعد وفاة المهدي بويع ابنه القاسم محمد بالخلافة والذي تلقب بالقائم بأمر الله، ثم خلفه المنصور بالله إسماعيل، وبعد وفاة

المنصور تولى الخلافة المعز لدين الله أبو تيم، وهو رابع خلفاء الدولة الفاطمية إلَّا أنه أشهرهم، حيث ضمت مصر إلى أملاك الدولة الفاطمية في عهده.

وكان لمصر أهمية كبيرة عند خلفاء الدولة الفاطمية، فمصر دولة غنية بمواردها الاقتصادية، كما أن السيطرة على مصر يسهل للفاطميين السيطرة على الحجاز مما يعطي شرعية كبيرة لخلافتهم.

مصر قلب العالم الإسلامي وصاحبة نفوذ على الحرمين الشريفين منذ العصر الإخشيدي، لذا كانت مصر مهمة للفاطميين، طمعوا فيها منذ تكوين دولتهم في بلاد المغرب.

لم يتوان الفاطميون عن توجيه حملاتهم للاستيلاء على مصر منذ بدء دولتهم حتى أن أول خلفائهم عبيد الله المهدي أرسل إليها أول حملاته بعد نحو أربعة أعوام فقط من تسلمه مقاليد الحكم في أفريقية، ولقد شكلت الحملات الفاطمية على مصر منذ ابتدائها حتى الاستيلاء على مصر موجتين كبيرتين تشتمل كل موجة منها على عدة حملات، وتفصل بينهما فترة توقف اضطراري طالت لأكثر من ربع قرن بسبب انشغال الفاطميين بشئون المغرب، ومع أن الموجة الأولى من هذه الحملات كانت الأطول زمنيًا من الثانية،

فقد كانت أقل فعالية منها، إذ أن الموجة الثانية هي التي حققت أمل الفاطميين المنشود للاستيلاء على مصر.[1]

على أي حال، في سنة 355 هـ أعد المعز لدين الله عدته للاستيلاء على مصر، فأمر بحفر الأبـار وتمهيد الطرق وإقـامـة القصور والمعسكرات على طول الطريق بين أفريقية والإسكندرية، وأسند إلى قائده جوهر الصقلي قيادة الجيش الفاطمي إلى مصر ومنحه كل الدعم.

استطاع جوهر الصقلي الاستيلاء على مصر في رمضان سنة 358هـ، ويبدو أنه لم يجد مقاومة في مصر، حيث هرب جند الإخشيد وأقيمت الدعوة في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، ثم سار جوهر إلى مسجد بن طولون وأمر المؤذن باستعمال عبارة (حي على خير العمل) بدلا من (الصلاة خير من النوم)، ثم صار يؤذن بها الأذان في مساجد مصر.[2]

توالت انتصارات الدولة الفاطمية حتى استطاعوا الاستيلاء على كل أراضي الدولة الإخشيدية في مصر وخارجها.

1- صفحات من تاريخ الدولة الفاطمية ص61 – أ.د. محمد بركات البيلي

2- مصر الإسلامية ص127 – أ.د. عصام الدين عبد الرءوف

openkan.com

أما عن أحوال مصر وأهلها عند قدوم جوهر الصقلي إليها، فلا أبلغ من قول المقريزي حين قال:

" وكان في عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد من قبل مثله بحيث أنه أحصي من مات في أيام يسيره فكانوا ستمائة ألف إنسان، وكانوا يلقون الغرباء في النيل، وبلغ الفروج دينارًا والبيضة درهمًا وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا مع كثرة الفتن وتغلب كل أحد من العمال وغيرهم على مايليه واختلاف أهل الدولة بمصر من الإخشيدية والكافورية، وكثرة تحاسدهم وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر وكانوا قد انتشروا في بلاد الشام فاختلت من أجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر، واضطربت أمور الناس، وتغيرت نياتهم، وساءت معاملاتهم وفسدت أكثر أوضاعهم، وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها وقلة أموالها، وتعذر وجود الأقوات، وكثرة الخوف وكان بمصر جماعة من دعاة المعز فاستمالوا من القواد ووجوه الرعية، وأنفذ إليهم المعز بنودا ففرقوها فيمن استجاب لهم، وأمرهم أن ينشروها اذا قاربت عساكره مصر".[1]

1- المقفى – المقريزي– ترجمة جوهر الصقلي

فمن الواضح أن أحوال مصر قد ساءت في الوقت الذي عجزت الخلافة العباسية عن التدخل لإقالة الإخشيديين أو استرداد مصر منهم، فكانت مصر مُهيأة للغزو الفاطمي من كل الاتجاهات.

بالفعل حقق الفاطميون حلمهم في الاستيلاء على مصر، وكان بطل ذلك قائدهم جوهر، ويمكن أن نؤكد أن وضع مصر قد تغير تمامًا في العصر الفاطمي، حيث تحولت مصر من مجرد ولاية تابعة للخلافة الإسلامية الراشدة ثم الأموية ثم العباسية، أو حتى من كونها دولة مستقلة عن الخلافة كالدولتين الطولونية والإخشيدية، إلى حاضرة خلافة تنافس الخلافة العباسية وتسعى إلى انتزاع زعامة العالم الإسلامي منها.

أما عن تاريخ حكام الدولة الفاطمية في مصر فنوجزه فيما يلي:

جوهر الصقلي 358هـ - 362هـ:

تولى جوهر الصقلي الحكم في مصر نيابةً عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي نحو أربع سنوات، عمل خلالها على التمهيد لنقل المعز وخلافته إلى مصر، وكان من ضمن أعمال جوهر الصقلي المهمة أثناء فترة ولايته على مصر هو بناء مدينة القاهرة، ولم يختر مكانًا جديدًا لحاضرة الدولة الفاطمية الجديدة، فاختار

موقعها في نفس المكان الذي أقيمت فيه العواصم الإسلامية في مصر من قبل.

أقام جوهر قصرًا للخليفة ليكون مقرا لحكم الدولة الفاطمية، كما قام ببناء المسجد الجامع والذي عُرِفَ باسم الجامع الأزهر والذي سُمِّيَ بذلك نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي (صلى الله عليه وأله وسلم)، والتي يرفع الفاطميون نسبهم إليها.

شرع جوهر الصقلي في مجموعة من الإجراءات الدينية لتحويل هوية الشعب المصري السني إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي اعتنقته الدولة الفاطمية، وقد بدأ ذلك بإفطاره من صوم رمضان على عدد بغير رؤية، وصلى صلاة العيد بمصلى القاهرة قبل أهل مصر بيوم.

وفي يوم الجمعة 8ذو القعدة 358هـ / 969م زاد في الخطبة " الصلاة على علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين وعلى الأئمة الراشدين أباء أمير المؤمنين الهاديين ".

ومن الواضح أن جوهر الصقلي لم يلتزم بالأمان الذي أعطاه لأهل مصر بألَّا يعارض مذهبهم السني.

المعز لدين الله الفاطمي:

دخل المعز لدين الله قصره في القاهرة في رمضان 362هـ / 973م، وتسلم مقاليد الأمور من جوهر الصقلي وترتب على ذلك تغيرا خطيرا لمصر والعالم الإسلامي أجمع،

اذ تحولت مصر من مجرد دار إمـارة إلى دار خلافة (وإن لم تصح هذه الخلافة)، وأصبحت هي مقر ومركز الخلافة الفاطمية والقاهرة هي حاضرة الخلافة الفاطمية.

بعد أن بسط جوهر الصقلي نفوذ الدولة الفاطمية في الشام تطلع المعز لدين الله إلى الحجاز وقد امتد نفوذه إلى الحجاز تلقائيًا، اذ بادر أشراف الحجاز العلويين إلى إعلان الولاء والبيعة له بعد سقوط الدولة الإخشيدية والتي كانت صاحبة النفوذ عليهم.

على هذا النحو فالمعز لدين الله هو رابع خلفاء الدولة الفاطمية بوجه عام، وأول خلفائها في مصر، ولم تستمر خلافته طويلا حيث توفي 365هـ وتولى ابنه العزيز بالله بعده الخلافة.

خلفاء المعز لدين الله في مصر:

تَولى العزيز بالله الخلافة في مصر بعد وفاة أبيه المعز لدين الله، رغم أنه لم يكن أكبر أبنائه، وقد استكمل العزيز بالله ما بدأه المعز

من تثبيت لأركان الدولة الفاطمية في مصر وساعده في ذلك القائد جوهر الصقلي، وقد اعتبر البعض عصر العزيز بالله أزهى عصور الفاطميين في مصر، إذ كانت خلافته فترة رخاء وعلم وتسامح ديني.

تُوفِيّ العزيز بالله وبويع لولده أبو علي بن العزيز بالخلافة سنة 386هـ وتلقب بالحاكم بأمر الله وكان عمره حينذاك قد بلغ احدى عشر سنة ونصف، فتولى الوصاية عليه أستاذه ومربيه برجوان الخادم.

ظل برجوان الخادم متحكمًا في أمور الدولة حتى سنة 395هـ حتى تخلص منه الحاكم بأمر الله وانفرد بأمور الدولة، وعرف عن الحاكم بأمر الله تعصبه لمذهبه الشيعي، واضطهاده للشعب المصري السني المذهب، كذلك تشدد مع أهل الذمة من المسيحيين واليهود.

كان للحاكم أمور غريبة في الحكم، فمنها منع التجول ليلًا والجلوس في الحوانيت، وكذلك منع ذبح الأبقار ومنع النساء الخروج من بيوتهن، والأغرب من ذلك أنه منع أكل السمك الذي لاقشر له (القرموط)، كما حرم أكل الملوخية وبرر ذلك بأن معاوية

بن أبي سفيان كان يميل إليها، كما حرم أكل الجرجير، إلَّا أنه يحسب لها أنه أقام دار الحكمة سنة 395هـ.

على أي حال قتل الحاكم بأمر الله في 411هـ، واختلفت الروايات فيمن قتله، وكيف قتله؟ وأين قتله ؟، لكن الثابت لدينا أنه قتل ومات سره معه.

وقد ظهر في عهده طائفة تعرف بالدروز تعتقد في ألوهية الحاكم بأمر الله ويؤمنوا بأنه اختفى ولم يقتل وأنه سيرجع لحكم العالم وتطهيره، أي أنه مهديهم المنتظر.

لما قتل الحاكم بأمر الله تولى أمر الخلافة بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله والذي توفي 427هـ.

• **الشدة المستنصرية:**

بوفاة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في 427هـ، ذهبت الخلافة إلى ابنه أبو تميم محمد المستنصر بالله، وكان عمره لم يتعد السابعة بعد، لكنه استمر في الخلافة 60عاما، فكانت خلافته أطول عهود الخلافة في العالم قاطبةً سواء بين خلفاء السنة، أو خلفاء الشيعة.[1]

1– أ.د.محمد بركات البيلي – المرجع السابق – ص108

كانت بداية عهده تتمتع بالرخاء والازدهار، إلَّا أن الأزمات داهمته وزعزعت دولته، وترتب على ذلك ظهور ما عرف بعصر الوزراء العظام والذين استبدوا بالحكم، ولم يكن للخلفاء الفاطميين معهم من السلطة الا الاسم فقط.

كان السبب الرئيس في هذه الأزمة هو انخفاض النيل، حتى عز ما يأكله الناس وتفشى الموت حتى قيل أنه كان يموت كل يوم بمصر عشرة ألاف نفس، وأكل الناس بعضهم بعضا، وعرفت بالشدة العظمى أو الشدة المستنصرية.

دفعت الأحداث المستنصر إلى أن يعهد إلى والي عكا من قبله بدر الجمالي بإدارة شئون الدولة، وقد جعله الله سببا في انقاذ مصر من عثرتها، وبه بدأ عصر الوزراء العظام، الذين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية في هذا العصر، وكان أخرهم صلاح الدين الأيوبي الذي أنهى الخلافة الفاطمية.

بويع أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بالخلافة بعد أبيه المستنصر، وفي عصره كان بداية تكوين الإمارات الصليبية في الشرق.

بويع الامر بأحكام الله بعد وفاة أبيه المستعلي، ثم تولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله عبد المجيد على أنه كفيل لطفل

منتظر سوف تنجبه إحدى سراري الامر بأحكام الله، إلَّا أنه ظل في الخلافة حتى مات وبويع للخلافة ابنه الظافر بالله أبو منصور إسماعيل.

لما توفي الظافر بالله أخذت البيعة لابنه الفائز بنصر الله والذي لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره بعد، فكانت مقاليد الحكم كلها في يد الوزير طلائع بن رزيك.

سقوط الدولة الفاطمية:

توفي الخليفة الفائز وخلفه العاضد لدين الله الفاطمي، وهو أخر خلفاء الدولة الفاطمية، اذ أن عصره شهد تطورات عظيمة كان لها بالغ الأثر في تغيير بوصلة التاريخ، ليس في مصر والعالم الإسلامي فحسب، بل العالم باسره.

فقد تنازع على منصب الوزارة في عهده اثنين من رجالات الدولة أحدهما يدعى شاور وهو والي الصعيد، والأخر هو أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي.

فَرَّ شاور إلى الشام وكان بها دولة سنية قوية هي الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي، وحكمها بعد وفاته ابنه نور الدين محمود، وكان للدولة الزنكية صولات وجولات ضد الحملات

الصليبية التي جاءت إلى الشرق واستطاعت أن تكون إمـارات صليبية مستغلة حالة الضعف والهوان التي مرت بها كل من الخلافتين العباسية السنية والفاطمية الشيعية.

على أي حال استنجد شاور بنور الدين محمود، وتعهد له أن يدفع نفقات الحملة التي ترسل معه لتأتيه بـالوزارة، وأن يدفع لنور الدين ثلث دخل مصر كجزية سنوية، وأن يتصرف في مصر كوكيل لنور الدين محمود.

من ناحية أخرى علم ضرغام بتحالف شاور ونورالدين، فعمل على محالفة عموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي، إلَّا أن الجيش الذي أرسله نور الدين محمود إلى مصر مع شاور، والذي كان بقيادة أسد الدين شيركوه، كان أسرع في الوصول إلى مصر واستطاع هزيمة ضرغام وقتله.

يبدو أن شارور بعد أن تخلص من ضرغام بفضل جيش نور الدين محمود، قد تنكر من وعوده له وطلب من أسد الدين شيركوه أن يغادر مصر، إلَّا أن أسد الدين شيركوه رفض المغادرة ورابط بجيشه في بلبيس بـالشرقية حتى ينفذ شاور وعوده.

استنجد شاور بعموري ملك بيت المقدس ليخلصه من جيش

شيركوه المرابط في بلبيس، وبالفعل وصل جيش عموري وحاصر شيركوه في الشرقية، إلَّا أنه تم الاتفاق على مغادرة شيركوه وعموري مصر معا، فخرجا وتركا مصر لشاور مرة أخرى.

كل هذه الأحداث تمر بالبلاد وأكثر، والخليفة العاضد الفاطمي لا حول له ولا قوة.

مرت الشهور، ووجهت الحملات الصليبية إلى مصر برعاية شاور، ولم يكن أمام السلطان نور الدين محمود بُدًّا من إرسال جيشه إلى مصر للتصدي للحملة الصليبية القادمة، كم أنه أدرك أهمية مصر إن استطاع انتزاعها من الفاطميين الشيعة وضمها إلى تحالف دولته المجاهدة ضد القوى الصليبية في الشرق.

أرسل نور الدين محمود جيشه من جديد إلى مصر وكان بقيادة أسد الدين شيركوه مجددًا والذي استطاع هزيمة الحملة الصليبية وقتل شاور الخائن، وتم تعيين أسد الدين شيركوه وزيرًا للخليفة العاضد الفاطمي.

ما لبث شيركوه أن توفي بعد شهرين فقط من الخلاص من شاور فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين.

ورغم صغر سن صلاح الدين، إلَّا أنه استطاع ان يكسب ثقة

أهل مصر ومحبتهم وكانوا عونًا له فيما واجهه من قلاقل وفتن داخلية، أو أطماع الصليبيين الخارجية.

أصبح صلاح الدين هو حاكم مصر المطلق بينما أصبح الخليفة العاضد بلا أمر ولا نهي.

وكان أمرًا متناقضا أن تبقى الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة سنية متشددة في ميولها السني، إذ كان نور الدين سنيًا متشددًا وكان صلاح الدين كسيده نور الدين في ميوله السنية.[1]

ويبدو أن نور الدين كان يلح على إسقاط الخلافة الفاطمية حتى أرسل أمرًا نهائيًا إلى صلاح الدين بإسقاط اسم الخليفة الفاطمي العاضد من الخطبة وإحلال اسم الخليفة العباسي المستضئ بدلا منه، وهو ما يعني انتهاء الدولة الفاطمية ورجوع مصر إلى الدولة العباسية مرة جديدة.

تم ذلك في 567هـ، ومر هذا الانقلاب في هدوء وسكينة أو على حد قول ابن الأثير "لم ينتطح فيه عنزان"، وفيما يبدو أن الشعب المصري كان يرغب في ذلك، وبهذا انتهت الدولة الفاطمية نهائيًا في مصر وغيرها، بعد أن حكمت مصر حوالي قرنين من الزمان.

1- أ.د. محمد بركات البيلي – المرجع السابق – ص132

الفصل الخامس

الدولة الأيوبية والخطر الصليبي

صلاح الدين الأيوبي:

تنسب الدولة الأيوبية إلى مؤسسها يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، وعُرفَ بالناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو ليس من أصول عربية بل هو كردي الأصل ويرجع نسبه إلى أحد أكبر قبائل الأكراد، وكان لأسرة صلاح الدين فرصة عظيمة في الوصول إلى أعلى المناصب القيادية في جيش عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود وهم أصحاب الدولة الزنكية في الشام.

استطاع صلاح الدين إسقاط الدولة الفاطمية في سنة 567هـ، ومن ثم عمل على القضاء على المذهب الشيعي في مصر وإحياء المذهب السني، واتخذ في هذا السبيل عدة اجراءات نذكر منها: عزل قضاة الشيعة وعين قاضيًا واحدا لجميع أنحاء الديار المصرية

على المذهب الشافعي، كما قام بالغاء مجالس الدعوة الفاطمية في الجامع الأزهر وأبطل الأذان بعبارة (حي على خير العمل)، وأمر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة، وعمل على إزالة أسماء الخلفاء الفاطميين التي كتبت على محاريب الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع عمرو بن العاص.

أنشأ صلاح الدين المدارس المختلفة لتحل محل الأزهر في القيام بإحياء المذهب السني، كما تخلص من الكتب التي تتناول المذهب الشيعي.

في كل الأحوال استطاع صلاح الدين إعادة مصر إلى سنيتها المعتدلة التي عرفت عنها عبر التاريخ الإسلامي.

أما عن موقف صلاح الدين من سيده نور الدين محمود، فلم يحاول الخروج عليه أو عصيانه، وإن كانت قد ظهرت في الأفق بوادر الاختلاف، وظل الأمر على ما هو عليه حتى توفي السلطان نور الدين محمود سنة 569هـ والذي كانت وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي، إلَّا أن بوفاته قد خلت الساحة لصلاح الدين ليصبح زعيما للعالم الإسلامي.

ومالبث صلاح الدين أن أصبح سلطانًا على مصر، إلَّا وعمل على إقامة جبهة إسلامية موحدة لمواجهة الخطر الصليبي، فقام

بتوحيد مصر والشام والعراق في دولة واحدة، وهو المثلث الإسلامي التاريخي الذي يتولى دائمًا مهمة الدفاع عن الأمة الإسلامية.

عمل صلاح الدين على تحصين مصر والقاهرة تحديدًا، فقام ببناء سور عظيم حول القاهرة ثم حفر خندقًا حوله، أما القلعة فكانت هي الأهم، لأنها ستكون مقرًا للحكم الأيوبي بدلًا من دور الحكم الفاطمية، ولتكن حصنًا يحتمي به من أي خطر يواجهه، وقد أحسن موقعها، اذ بناها على جبل المقطم لتشرف على القاهرة كلها.

وفي زيارة الرحالة الأندلسي ابن جبير لمصر، شاهد القلعة ووصفها بأنها "حصن حصين المنعة"، وقد عهد صلاح الدين إلى الأمير بهاء الدين قراقوش بالإشراف على بنائها، إلَّا أن عمارة القلعة لم تتم إلَّا في عهد السلطان الكامل، ولم يقدر صلاح الدين أن يسكنها.

أقام صلاح الدين قلعة أخرى تقع في جزيرة فرعون قرب مدينة طابا، وقلعة ثالثة تعرف باسم الجندي، ثم شرع في تحصين الموانئ والثغور وبناء الأسطول.

بعد أن أتم صلاح الدين تحصين مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية أصبح واجب الوقت على صلاح الدين هو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام واسترداد بيت المقدس منهم، وهو لم يتأخر في ذلك.

• التعريف بالحملات الصليبية على الشرق الإسلامي:

في اللحظة التي تقع فيها عيناك على مصطلح الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية، قد تعتقد أنها حملات دينية في ظاهرها وباطنها، بينما الحقيقة أنها لم تخرج في باطنها عن كونها عدوانًا استعماريًا اتخذ ظاهرًا دينيًا، حيث اتخذ رجالها من الصليب قناعًا لهم، ليوهموا عامتهم بأنهم يحاربون لنصرة المسيحية من عدوان المسلمين، مستغلين جهل الشعوب الأوروبية التي كانت تعيش عصورها المظلمة، وكانت شعوب فقيرة وقعت فريسة لاستغلال حكام أوروبا لها، الذين أخفوا مطامعهم الاستعمارية في بلاد الشرق الإسلامي.

نجح بابا روما ورجال الدين المسيحي بأوروبا في إثارة حماس الشعوب والحكام لشن حملات صليبية على الشرق الإسلامي في شكل موجات متتالية استمرت حوالي مائتي عام وقد سميت بهذا الاسم، لأن جنود هذه الحملات اتخذوا من الصليب شعارًا لهم ورسموه على صدورهم وأعلامهم.

على أي حال بدأت الحملات الصليبية عام 490هـ بالحملة الصليبية الأولى مستغلة حالة ضعف الدولة الإسلامية أنذاك،

واستطاعت هذه الحملة إقامة أربع إمارات صليبية في الشرق وهي على الترتيب:

1. إمارة الرها شمال العراق
2. إمارة أنطاكية
3. إمارة بيت المقدس، وجعلوها مملكة لأهميتها الدينية
4. إمارة طرابلس

لم يكن صلاح الدين أول من جاهد ضد الصليبيين، حيث كانت الدولة الزنكية قد بدأت رحلة الجهاد ضدهم، واستطاع السلطان عماد الدين زنكي أن يسترد إمارة الرها من أيديهم كما تصدى ابنه السلطان نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية وحرر الكثير من المدن الإسلامية ولكنه تُوفي قبل أن يحقق حلمه في استرداد بيت المقدس.

بعد جهاد الدولة الزنكية، جاء دور صلاح الدين للقضاء على وجودهم في الشرق وإستعادة بيت المقدس من أيديهم.

• **معركة حطين** 583هـ - 1187م:

لم تكن معركة حطين هي الأولى أو الأخيرة بين صلاح الدين والصليبيين، إلَّا أنها أهم المعارك وأشهرها في تاريخ المواجهة

obeikan.com

بين المسلمين والصليبيين على مر تاريخ المواجهة بينهما.

قام أرناط أمير حصن الكرك الصليبي بالهجوم على قافلة كبيرة للمسلمين، ويبدو أنها لم تكن المرة الأولى لأرناط التي يهاجم فيها قوافل المسلمين حتى أن قوافل الحجاج لم تسلم منه.

أقسم صلاح الدين أنه إذا تيسر له أن يقبض على أرناط فسوف يقتله بيده، وكانت هذه الحادثة بمثابة عود الثقاب الذي أشعل نار الحرب.

أعلن صلاح الدين الحرب على الصليبيين وأخذ في تعبئة القوات واختار أن يقيم في دمشق خلال هذه المرحلة لتكون مركزًا ينظم منه تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة الفراتية.

استدرج صلاح الدين الصليبيين إلى سهل حطين بفلسطين في يوم شديد الحرارة، وأعمل صلاح الدين وجنده فيهم القتل ومن نجى من القتل كان مصيره الأسر، حتى إن ابن الأثير قد قال في ذلك: "وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لايظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى"، وكان من بين الأسرى جان لوزجنان ملك بيت المقدس، وأرناط صاحب حصن الكرك، وجيرار مقدم الداوية (فرسان المعبد)، وقد أحسن صلاح الدين معاملتهم وأطلق سراحهم فيما بعد، إلا أرناط فقد أحضر إلى صلاح الدين فقتله وألقاه على باب الخيمة.

بعد إنتصار حطين توالت المدن والإمارات الصليبية في السقوط، حتى دخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس في يوم الجمعة الموافق 27من رجب سنة 583هـ في ذكرى الإسراء والمعراج.

إلَّا أن أوروبا هبت كلها لاستعادة مستعمراتها التي استردها منهم صلاح الدين، وقامت البابوية بالدعوة لذلك، ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة ملوك وأمراء أوروبا وعلى رأسهم ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، ومعه كل من ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا.

لعب القدر دوره أمام هذه الجحافل الأوروبية، فغرق الإمبراطور الألماني أثناء عبوره أحد أنهار أسيا الصغرى فانهارت حملته ولم تتمكن من الوصول إلى الشام، ثم دب الخلاف بين ملك إنجلترا وملك فرنسا عاد على أثره ملك فرنسا إلى بلاده.

وجد ريتشارد نفسه وحيدا أمام صلاح الدين، ولما عجز عن هزيمته طلب منه الصلح وقبله صلاح الدين وعقد بينهما الصلح المعروف بصلح الرملة 588هـ.

في العام التالي لعقد صلح الرملة توفي السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكانت وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي وللإنسانية كلها.

خلفاء صلاح الدين في مصر:

بعد وفاة السلطان صلاح الدين حدث نزاع على الحكم بين أبنائه، إلَّا أن الأمر انتهى إلى تولية ابنه العزيز عثمان حكم الدولة الأيوبية والذي لم يستمر حكمه أكثر من خمس سنوات حيث توفي 595هـ بعد أن سقط من فوق جواده قرب الأهرام.

تجدد النزاع بين أبناء صلاح الدين، فتعرضت الدولة الأيوبية إلى خطر التقسيم، حتى تدخل العادل أخو صلاح الدين وحافظ على وحدتها وأصبح سلطانها.

بوفاة الملك العادل وصل الملك الكامل إلى الحكم وفي عهده كانت أوروبا قد بدأت في ارسال حملاتها الصليبية إلى مصر باعتبارها رأس الأفعى كما وصفوها، حيث أدركت دوائر الحكم والقرار في أوروبا أن مصر هي العقبة الرئيسة التي تحول بينهم وبين تحقيق أحلامهم في الشرق، وبالفعل جاءت في عهد الملك الكامل حملة صليبية إلى مصر وحاصرت دمياط، إلَّا أن صمود أهل دمياط ومعهم السلطان الكامل واخوته كان كافيًا لرحيل هذه الحملة تجر ورائها أذيال الخيبة.

تُوفي السلطان الكامل محمد في 636هـ –1238م، وترك ولدان هما العادل الثاني والصالح نجم الدين أيوب، ورغم أن الصالح كان هو الأكبر سنًّا، إلَّا أن السلطان الكامل كان قد عهد بالعرش لابنه الأصغر العادل الثاني حيث كان غاضبًا على الصالح.

فقد حدث أن اشترى الصالح جماعة من المماليك الترك، وحاول الاستيلاء على العرش من يد أبيه الكامل محمد، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل مما دفع الكامل إلى أن يجعل العادل الثاني وهو الابن الأصغر، وريثًا له ووليًا لعهده.[1]

على أي حال لم يلبث العادل الثاني في الحكم طويلا حيث استطاع أخوه الصالح نجم الدين أن يستولي على الحكم منه.

وصادف عصر الملك الصالح في مصر، وصول لويس التاسع إلى حكم فرنسا، وكان قد أصيب بمرض عضال وأشرف على الموت، فنذر إن شفاه الله أن يقوم بحملة صليبية، وقد وصلت أنباء هذه الحملة الجديدة وهي السابعة من نوعها إلى الملك الصالح وكان موجودا بدمشق، ويبدو أنه علم أنها متجهة إلى مصر، وعلى الرغم من اشتداد المرض عليه قرر الرحيل إلى مصر.

1– تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام –ص13 د. ليلى عبد الجواد.

تصدَّى الملك الصالح للحملة الصليبية والتي كانت قد استولت على دمياط، إلَّا أن الوفاة قد أدركته قبل هزيمة الحملة وكان له ولد واحد لايزال على قيد الحياة وهو توران شاه الذي أكمل مسيرة أبيه في التصدي للحملة الصليبية، وعاونته على ذلك زوجة أبيه شجر الدر.

استطاع الشعب المصري هزيمة حملة لويس التاسع بل وألقوا القبض على لويس نفسه وقادوه أسيرًا مكبلًا بالأغلال إلى دار القاضي فخر الدين بن لقمان.

سقوط الدولة الأيوبية:

استعانت شجر الدر ببعض أمراء المماليك لتدبير مؤامرة للتخلص من توران شاه وقتله حتى تستولي على حكم الدولة الأيوبية لنفسها، وبالفعل استطاع هؤلاء التخلص من السلطان توران شاه وقتله في محرم عام 648هـ، وبمقتله انتهى الحكم الأيوبي في مصر والذي استمر نحو إحدى وثمانين سنة.

الفصل السادس

دولة المماليك والخطر المغولى

قيام دولة المماليك:

بعد مقتل السلطان توران شاه أخر سلاطين الأيوبيين على يد أمراء المماليك، أجمع أمراء المماليك على تنصيب شجر الدر ملكة على البلاد وأخذوا لها البيعة وقاموا بالدعاء لها على المنابر.

وقبل أن نتناول تاريخ حكام دولة المماليك في مصر، يجب علينا الإشارة إلى عدة نقاط مهمة، وهي:

- **أولًا:** من الواجب على كل مصري أن يدرس تاريخ دولة المماليك، اذ أصبحت مصر في عهدهم قوى عظمى في العالم إن لم تكن هي الأقوى دون منازع لعقود، كما أن دولة المماليك استطاعت أن تحمي مصر والعالم الإسلامي بأسره من خطرين كبيرين وهما: التصدي للخطر المغولي الذي هدد العالم كله، وتصفية

obeikan.com

الوجود الصليبي في الشرق تمامًا باسترداد كل الإمارات التي استعمرها الأوروبيون في الشرق.

- **ثانيًا:** يمكن تقسيم تاريخ حكام المماليك في مصر إلى أسرتين رئيستين، وهما: أسرة المماليك البحرية ثم أسرة المماليك البرجية أو الشركسية.
- **ثالثًا:** من هم المماليك ؟ نجد أن أفضل تعريف لمصطلح المماليك أنهم عناصر تولت حكم مصر بعد سقوط الدولة الأيوبية، وهم جماعة من الرقيق جلبوا من بلدان مختلفة مثل القرم والقوقاز والقفجاق وأسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ماوراء النهر، وكلها أقاليم أسيوية، وهم خليط من الأتراك والشركس والروم والروس والأكراد وبعض البلدان الأوروبية.

وقد فرض المماليك على أنفسهم عزلة ورفضوا الاختلاط أو التزاوج من سكان مصر والشام مما أوجد فجوة بين هؤلاء الحكام ومحكوميهم وترك أثرًا واضحًا في المجتمع المصري آنذاك.

كان يتم شراء المماليك من تجار النخاسة والذين يجلبونهم في الغالب من أسرى الحروب التي دارت بين الأتراك والمغول على أثر خروجهم من منطقة الاستبس في آسيا، بالإضافة

إلى أن بعض الناس في بلاد الترك باعوا أولادهم في أسواق النخاسة على أمل أن يصبحوا في يوم سلاطين، خاصة بعد أن قامت دولة المماليك وأصبح المماليك سلاطينا، تجدر الإشارة إلى أن تاجر المماليك كان يلقب بالخواجا أو تاجر الخاص.[1]

وكان المملوك يُنسب إلى أستاذه الذي اشتراه مثل بيبرس البندقداري نسبة إلى أستاذه ومربيه علاء الدين البندقداري، أو يُنسب إلى الثمن الذي اشتري به مثل قلاوون الألفي، أو يُنسب إلى التاجر الذي جلبه مثل المؤيد شيخ المحمودي نِسبة إلى الخواجا محمود شاه الرومي الذي جلبه.

بعد أن يتم شراء المماليك وهم صغار، كانوا يلحقوا بالطباق أي المعسكر، وهو المكان الذي يتعلم فيه القراءة والكتابة وتعاليم الإسلام ويحفظ القرآن ثم يبدأ التدريب العسكري والفروسية.

- **رابعًا:** ما الفرق بين المملوك والعبد ؟ كلاهما من الرقيق إلَّا أن المملوك كان أبيض اللون ومهمته الأمور العسكرية والحرب، بينما العبد فكان أسود اللون ويعمل في الزراعة أو الخدمة أو غيرها.

1- تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام – ص15 د.ليلى عبد الجواد.

على أي حال قامت دولة يحكمها المماليك في مصر واستطاعت هذه الدولة أن تجعل عصرها واحدًا من أهم عصور مصر ان لم يكن هو الأهم، لما كان له من أثر باق في الشئون الداخلية للبلاد، وما اتسم به من أحداث لعبت فيها مصر دورًا يحسب لها كقلب الأمة العربية والإسلامية وكمنارة مضيئة، وملتقى أنظار وأطماع الفاتحين والسادة.

عصر الأسرة الأولى (المماليك البحرية - التركمان):

1. **شجر الدر:** هي شجر الدر عصمة الدين أم خليل الصالحية، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان لها دورًا عظيمًا في التصدي للحملة الصليبية التي جاءت إلى مصر في عصر زوجها الملك الصالح خاصة بعد وفاته.

أجمع أمراء المماليك على مبايعتها ملكة على مصر بعد مقتل توران شاه، وتمت بيعتها 648هـ – 1250م، واتفق المماليك على أن يكون الأمير عز الدين أيبك التركماني أتابك العساكر.

خُطب باسمها على المنابر، وضُربت العملة باسمها، وأصبحت بذلك أول امراءة تتولى الحكم في بلد إسلامي على مر التاريخ، كما قال السيوطي "ولم يل مصر في الإسلام امراءة قبلها".

يبدو أن الشعب المصري حينها لم يقبل بفكرة أن تتولى امرأة الحكم، واعتبر الفقهاء ورجال الدين توليها العرش خروجًا على الدين، كذلك لم يوافق الخليفة العباسي المستعصم على تولي شجر الدر عرش السلطنة في مصر.

بدأت شجر الدر تشعر بحرج موقفها وبضعفها كامرأة، لذا جمعت الأمراء والقضاة وخلعت نفسها من السلطنة برضاها، وأشار عليها القاضي تاج الدين بن بنت الأعز أن تتزوج بالأمير أيبك التركماني مقدم العساكر وأتابكها ولازال يتلطف بها حتى أذعنت بذلك، ولم يقم القاضي تاج الدين من المجلس حتى عقد العقد بينهما، ثم بايع القاضي أيبك بالسلطنة بعد خلع شجر الدر، وبعد ان اتفق الأمراء على ذلك.[1]

2. **عز الدين أيبك:** هو السلطان المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحي النجمي، وهو أول ملوك الترك بمصر، بويع بالسلطنة بعد خلع شجر الدر سنة 648هـ – 1250م، وكانت ولايته في عهد الخليفة العباسي المستعصم بالله.

واجه أيبك بعد اعتلائه عرش السلطنة العديد من الصعاب، منها

1– د.ليلى عبد الجواد – المرجع السابق – ص 180

ثورات الأيوبيين ضده، إلَّا أن أخطر ما واجه أيبك كان غضب المماليك البحرية، لأن أيبك ليس منهم، وكان على رأس المماليك البحرية فارس الدين أقطاي الجمدار مقدم المماليك البحرية، ومعه قلاوون وبيبرس، إذا كان هؤلاء أخطر المماليك البحرية على أيبك.

استطاع أيبك أن يتخلص من أقطاي بقتله، ففر معظم المماليك البحرية إلى الشام خوفًا من أن ينالوا مصير أقطاي.

ويبدو أن أيبك استبد بالحكم ولم يمنح شجر الدر أي صلاحيات، وهي التي كانت مجبرة على الزواج منه، فقررت أن تتخلص منه، واستطاعت أن تعد مجموعة من الخدم الذين قتلوه وهو بالحمام في القلعة وشاركت بنفسها في تنفيذ هذه المؤامرة، فأخذت تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرع إليها حتى مات، ويبدو أنها نالت نفس المصير من القتل بنفس الطريقة على يد زوجة أيبك الأولى وأعوانها.

3. **المنصور علي بن أيبك:** هو السلطان الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز أيبك، بويع بالسلطنة بعد موت أبيه 655هـ–1257م، وكانت ولايته في عهد الخليفة المستعصم بالله العباسي، والذي قتل في بغداد على يد هولاكو ملك المغول.

ومن الجلي أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة في الحكم، بل كان من يبدي جدارته واستطاعته للسلطنة أخذها، وكان المنصور علي صبيًا في الخامسة عشر من عمره، مما جعله مطمعًا للإنتهازيين، فتم تعيين أحد أمراء المماليك وهو سيف الدين قطز ليكون وصيًا عليه ونائبًا للسلطنة.

وصلت الأخبار إلى مصر بان المغول استولوا على بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم، وحرقوا المساجد والجوامع وسفكوا دماء الآلاف من الناس، ثم اتجهوا إلى الشام، فشعر أهل مصر بالضيق وأدركوا أن الخطر قريب منهم.

في ظل هذه الظروف العصيبة التي حلت بالعالم الإسلامي كله، قرر سيف الدين قطز أن يعزل المنصور علي عن الحكم لصغر سنه واستحالة أن يكون على رأس السلطنة أثناء مواجهة المغول، وجمع قطز الأمراء وكبار القادة والعلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم:

" إني ماقصدت من السيطرة على الحكم إلَّا أن نجتمع على قتال التتار، وهذا لن يتأتى الا من خلال ملك قوي، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم"

وكان رأي معظم المماليك من رأي قطز وقالوا له ليس لها غيرك.

4. **سيف الدين قطز:** هو السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز المعزي، وهو من مماليك المعز أيبك التركماني، بويع بعد خلع الملك المنصور علي 657هـ – 1259م، ولم يكن في عهده خليفة للمسلمين بعد قتل الخليفة المستعصم وسقوط بغداد في يد المغول.

لم يلبث المغول أن زحفوا من العراق إلى الشام واستولوا عليها، والمغول أو التتار هم قبائل موطنهم الأصلي منغوليا بوسط أسيا، وقد اتصفوا بالقسوة والخشونة، كما لم يعرفوا حياة الاستقرار.

من وصفهم قوة البدن وهم ذو وجوه عريضة سمراء اللون، قصيرو القامة والأطراف، قويو العضلات، يأكلون جميع أنواع اللحوم حتى لحوم الأدميين.

كانت ديانتهم وثنية تعرف بالشامانية، وقد استطاع جنكيز خان أن يوحِّد كل قبائل المغول وعرف بالحاكم الأعظم، ولما أدرك قوة قبائله عزم على الزحف نحو الشرق الإسلامي ثم إلى العالم كله.

مات جنكيز خان وتولى أمر المغول أوغاداي، إلَّا أن هولاكو حفيد جنكيز خان كان هو الأشهر بين أباطرة المغول، فهو من استكمل مسيرة جده في الزحف وتوسيع إمبراطورية المغول.

بعد استيلاء المغول على العراق والشام، أصبح اجتياحهم لمصر مجرد أمر وقت لا أكثر ولا أقل، والأمور في يد قطز تسر وتسعد العدو ولا تطمئن المسلمين، فلا أمة موحدة ولا جيوش مستعدة ولا سلاح ولا عدة.

وصلت رسل هولاكو إلى مصر وقابل قطز هذا الأمر بقتلهم وعلق رؤسهم على باب زويلة وأعلن الجهاد قائلًا:

" من اختار الجهاد فليصحبني ومن لم يختره فليرجع إلى بيته "

بدأ قطز الاستعداد لمواجهة المغول، فوحد جبهة المسلمين وحث الناس على الجهاد بالنفس والمال، وطلب من الشيخ العز بن عبد السلام أن يفتيه بجواز فرض الضرائب على الناس لجمع الأموال اللازمة لتجهيز الجيش للمعركة فكان رد العز:

" إذا طرق العدو البلاد وجب قتاله وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهاده بشرط ألَّا يبقى في بيت المال شئ، وأن تبيعوا ممتلكاتكم ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه فتتساووا مع العامة ".

بدأ قطز بنفسه، وتبعه في ذلك أمراء المماليك، وقرر قطز الخروج لملاقاة المغول عند عين جالوت بفلسطين 658هـ – 1260م، فقال

ابن كثير " بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ".

قسَّم قطز جيشه إلى قسمين، قسم ضم مقدمة الجيش وطليعته وعهد بقيادته إلى بيبرس البندقداري، والقسم الثاني باقي الجيش، وكان بقيادة سيف الدين قطز نفسه، وفي المقابل كانت جيوش المغول بقيادة كتبغا.

عمل قطز على إثارة روح الحماسة في جنوده وحثهم على قتال المغول ونصرة الإسلام والمسلمين، ووضع قطز خطة عسكرية محكمة تتلخص في أن تقوم طليعة الجيش بقيادة بيبرس بمناوءة جيش كتبغا عند اقترابه، بينما يختبئ القسم الأكبر من الجيش بين الأحراش والغابات المحيطة بعين جالوت التي تقع بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين.

ظن كتبغا أن طليعة الجيش بقيادة بيبرس تمثل الجيش كله فحمل حملة قوية عليه، فتراجع بيبرس وفق الخطة تجاه الكمين والجيش المغولي في أثره، وفجأة خرج الجيش من ثلاث جهات وحاصر المغول.

اضطربت صفوف المسلمين أمام كثرة المغول، لكن قطز ثبت

في مكانه، وألقى بخوذته على الأرض، وصرخ بأعلى صوته "وإسلاماه، يالله انصر عبدك قطز"،

وحمل بنفسه على المغول مما رفع الروح المعنوية لجيشه واستطاعوا هزيمة العدو وقتل كتبغا نفسه.

بهذا الانتصار العظيم يمكن التأكيد على أن دولة المماليك استطاعت حماية مصر والعالم الإسلامي من خطر المغول، واستطاع المماليك تدعيم ملكهم، ويعترف المؤرِّخون الأوربيون عند تأريخهم لمعركة عين جالوت أنها لم تنقذ العالم الإسلامي فحسب من الخطر المغولي، بل أنقذت العالم المسيحي كذلك، حيث لم يكن في أوروبا حينئذ ملك مسيحي قوي يستطيع مقاومة المغول لو تقدموا في طريقهم الطبيعي إلى أوروبا، وكان حتمًا سيتغير وجه التاريخ إذا حدث ذلك.

أما في مصر فقد عم الفرح، واستعدت القاهرة لاستقبال قطز بطل عين جالوت، وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت، واستعد أهل القاهرة لاستقبال البطل، ولكن شاء القدر ألَّا يصل قطز إلى القاهرة، فقد قتل في طريق عودته على يد بيبرس.

يبدو أن المماليك البحرية ومنهم بيبرس لم ينسوا أن قطز شارك

في قتل كبيرهم أقطاي زمن أيبك، كما أن قطز كان قد وعد بيبرس أن يعطيه ولاية حلب وقد تأخر في تنفيذ ذلك.

على أي حال دُبرت مؤامرة من المماليك البحرية للتخلص من قطز واستطاعوا قتله، وكان من الطبيعي أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله بيبرس.

5. **السلطان الظاهر بيبرس:** هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي، رابع ملوك الترك في مصر، تسلطن بعد مقتل الملك المظفر قطز 658هـ 1260م.

كان قد تلقب أولًا بالملك القاهر أبي الفتوحات، فنهاه بعض العلماء عن هذا اللقب، وقيل له: " ما تلقب أحد من الملوك بهذا اللقب وأفلح "، فأبطل السلطان هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر.

من أهم أعماله، إعادة الخلافة العباسية بعد سقوطها على يد المغول في بغداد، أعادها في مصر سنة 659هـ – 1261م بالاسم فقط، وبويع بها المستنصر بالله أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بعد أن أثبت نسبه.

ويعتبر الظاهر بيبرس بما قام به من أعمال سياسية وإدارية هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام، كما عمل على

ملاحقة الصليبيين والمغول، واسترد إمارة أنطاكية من الصليبيين، وقام ببناء المسجد المعروف باسمه والمدرسة الظاهرية بالقاهرة، واهتم بشئون الزراعة وتحسَّنت أحوال البلاد الاقتصادية في عهده

6. **السلطان بركة خان:** هو السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد المدعو بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس البندقداري، تسلطن في حياة والده سنة 662هـ – 1263م، وبقي ليس له من السلطنة إلَّا الاسم إلى أن تُوفي أبوه الملك الظاهر بيبرس سنة 676هـ – 1277م، وظل في الحكم عامين تقريبًا حيث خلع سنة 678هـ –1279م، ومات في نفس العام، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

7. **السلطان سلامش:** هو السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس، بُويع بعد خلع أخيه الملك السعيد سنة 678هـ – 1279م، وهو ابن سبع سنين، وجعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

8. **السلطان قلاوون:** هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي، بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل سلامش سنة

678هـ – 1279م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

9. **السلطان خليل:** هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون الألفي، تولى بعد أبيه سنة 689هـ– 1290م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

واصل الجهاد ضد الصليبيين حتى استطاع أن يسترد منهم عكا، والتي كان استردادها تمهيدًا لاسترداد العديد من المدن مثل صور وصيدا وغيرها.

10. **السلطان بيدرا:** هو الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري، اختاره الملك الأشرف بعد توليه الملك، ليكون نائبا للسلطنة بالديار المصرية، إلَّا أنه قتل الملك الأشرف وأخذ البيعة لنفسه، ولقب بالملك الأوحد سنة 693هـ – 1293م، وما لبث أن تولى السلطنة حتى قتل في صبيحة اليوم التالي على يد الأمير زين الدين كتبغا.

11. **السلطان الناصر محمد (الولاية الأولى):** هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد بن الملك المنصور قلاوون، بويع بالسلطنة بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل

وهو ابن تسع سنين، وكانت هذه الولاية في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

12. **السلطان كتبغا:** هو السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغلي، وأصله من سبايا التتار، ولما تولى الناصر محمد جعله نائب السلطنة، إلَّا أنه قام بخلع الناصر محمد صغير السن سنة 694هـ – 1294م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

13. **السلطان لاجين:** هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل كتبغا 696هـ – 1296م، وكانت ولايته في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

14. **السلطان الناصر محمد (الولاية الثانية):** قتل السلطان المنصور لاجين، وأعيد الناصر محمد إلى السلطنة مرة أخرى، وكان منفيا بالكرك سنة 698هـ – 1298م، وفي ولايته هذه توفي الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وبويع بالخلافة المستكفي بالله العباسي.

15. **السلطان بيبرس الثاني:** هو السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، بويع بالسلطنة بعد أن خلع الملك الناصر نفسه وهو بالكرك بكتاب كتبه إلى الديار

المصرية يتضمن عزل نفسه عن السلطنة في 708هـ – 1308م.

16. **السلطان الناصر محمد (الولاية الثالثة):** في سنة 709هـ – 1309م،أعلن بيبرس الثاني أنه خلع نفسه من السلطنة واستولى على خزائن مصر وفر هاربًا بعد أن فوجئ برحيل معظم الأمـراء المماليك إلى الناصر محمد بالكرك ليصحبوه في عودته إلى القاهرة.

شارك الناصر محمد في كثير من الحروب ضد الصليبيين كما اهتم بإقامة نهضة حضارية عمرانية لم تشهدها مصر في عهد أي سلطان من سلاطين دولة المماليك.

تعاقب على السلطنة عدد من السلاطين المماليك بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهم على الترتيب:

– المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد

– السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد

– السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد

– السلطان الملك الصالح أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد

– السلطان الملك الكامل زين الدين شعبان بن الناصر محمد

– السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي المعروف بأمير حاج بن الناصر محمد

- السلطان الملك الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (المرة الأولى)
- السلطان الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد
- السلطان الملك الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (المرة الثانية)
- السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد
- السلطان الملك الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون.
- السلطان الملك المنصور علاء الدين علي بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد.
- السلطان الملك الصالح زين الدين أبو الجود أمير حاج بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد (المرة الأولى)

وبانتهاء فترة السلطنة الأولى للصالح حاجي انتهى عصر أسرة المماليك البحرية وبدأ حكم أسرة المماليك الشراكسة (البرجية) 784هـ – 1382م.

عصر الأسرة الثانية (المماليك البرجية - الشراكسة):

يعتبر السلطان المنصور قلاوون صاحب فكرة تكوين هذه الفرقة من المماليك، حتى يعتمد عليها ضد منافسيه، وتكون في نفس الوقت سندًا لإبنائه من بعده في الاحتفاظ بالعرش، كذلك رأى المنصور قلاوون أن تختلف فرقته الجديدة في أصولها عن سائر طوائف المماليك الآخرى، أي لا تكون من الأتراك، لذا اختار عنصر الجركس أو الشركس وهم الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا الحالية).

وكان سلاطين المماليك من هذه الأسرة هم على الترتيب:

- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجركسي (الولاية الأولى)
- المنصور حاجي، وقد أعيد للسلطنة مرةً ثانيةً بعد خلع الظاهر برقوق 791هـ-1389م
- السلطان برقوق (الولاية الثانية)، بعد أن خلع منصور حاجي نفسه 792هـ-1390م
- السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الظاهر برقوق (الولاية الأولى)

- السلطان الملك المنصور عز الدين أبو العز عبد العزيز بن الظاهر برقوق
- السلطان الناصر فرج (الولاية الثانية)
- الخليفة المستعين، حيث بعدما قتل السلطان الناصر فرج، اتفق الأمراء على إقامة الخليفة العباسي المستعين في السلطنة بالإضافة إلى الخلافة، وقد وافق بعد الحاحهم وبايعوه جميعا، وظل يجمع بينهما حتى خلعه المؤيد شيخ المحمودي
- السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ المحمودي الظاهري، وعرف بالخاصكي المجنون
- السلطان الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ
- السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر
- السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد أبو السعادات بن الظاهر ططر
- السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري
- السلطان الملك العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأشرف برسباي

openkan.com

- السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد محمد جقمق العلائي الظاهري
- السلطان الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان بن الظاهر جقمق
- السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر اينال العلائي الظاهري برقوق الناصري فرج
- السلطان الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن الأشرف اينال
- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي
- السلطان الملك الظاهر أبو نصر يلباي الاينالي المؤيدي
- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهري
- السلطان الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري، صاحب القلعة المشهورة بالإسكندرية.
- السلطان الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن الأشرف قايتباي (الولاية الأولى)
- الأشرف أبي النصر قانصوه خمسمائة
- السلطان الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن الأشرف قايتباي (الولاية الثانية)
- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه بن قانصوه الأشرف

- السلطان الملك الأشرف أبو النصر جانبلاط بن يشبك الأشرفي
- السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باي الأشرفي قايتباي (طومان باي الأول)
- السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري الأشرفي
- السلطان الملك الأشرف أبو النصر طومان باي من قانصوه الناصري (طومان باي الثاني)، وقد وقع الاختيار عليه بعد مقتل قانصوه الغوري، وبويع بعد معارضة منه سنة 922هـ – 1516م، ثم صلبه العثمانيون على باب زويلة 1517م، وبوفاته انتهى عصر دولة المماليك.

سقوط دولة المماليك:

كانت دولة المماليك القوى العظمى في العالم، وصاحبة السيادة على العالم الإسلامي، وبانتقال الخلافة العباسية إلى مصر في عصر الظاهر بيبرس وان كانت بالاسم فقط دون أي صلاحيات، أصبحت دولة المماليك صاحبة الشرعية في إدارة شئون الدولة الإسلامية كلها.

إلَّا أن عدة عوامل قد اجتمعت وأدت إلى انتهاء وسقوط دولة المماليك، أهم هذه العوامل كان الصراع على السلطة والحكم

بين المماليك أنفسهم مما كان له بالغ الأثر في إضعاف قوتهم حيث انخرطوا في معارك داخلية ضد بعضهم، وأنهكت قوتهم، ولم يدركوا الأخطار التي تهدد حكمهم ولاسيما الخطر العثماني الذي لاح في الأفق وتطلع إلى بسط نفوذه على كل العالم الإسلامي وانتزاع شرعية المماليك في حكم الدولة الإسلامية.

كما أن دولة المماليك تعرضت إلى إنهيار اقتصادي شديد خاصة بعد أن استطاع البرتغال إكتشاف طريق جديد تمر منه القوافل التجارية بين الشرق والغرب بعيدا عن أراضي دولة المماليك، هذا الطريق الذي عرف برأس الرجاء الصالح، وترتب على ذلك حرمان المماليك من تحصيل المكوس أو الضرائب التي كانت تجمع من القوافل التجارية العابرة من أراضيها في مصر والشام.

ومما لاشك فيه أن الانهيار الاقتصادي لدولة المماليك بطبيعة الحال صحبه تدهور في قوتهم العسكرية، بالإضافة إلى التطاحن المستمر فيما بينهم ونزاعهم المستمر على السلطة وانقسامهم إلى فرق ومجموعات وأحزاب.

اجتمعت كل هذه العوامل وغيرها، ومهدت الطريق أمام السلطان العثماني القوي سليم الأول الذي استطاع هزيمة المماليك في معركتين غيرا تاريخ الدولة، وهما:

• **معركة مرج دابق 1516م:**

استطاع السلطان سليم الأول هزيمة المماليك في الشام، وقتل السلطان الغوري الذي قيل أنه سُحِقَ تحت أرجل خيول مماليكه الفارين.

• **معركة الريدانية 1517م:**

عاد شتات جيش المماليك المهزوم في مرج دابق إلى مصر، ووجب على الفور اختيار سلطان جديد، فأعلن طومان باي ابن أخي قانصوه سلطانًا.

قام طومان باي بتجهيز جيشه متخذًا موقف الدفاع واثقًا من أن العثمانيين لن يخاطروا بعبور صحراوات أوقفت كلًا من هولاكو وتيمورلنك، إلَّا أن سليم الأول فاجئه، وعبر هذه الصحراوات إلى مصر حتى كانت معركة الريدانية قرب صحراء العباسية، وماقبلها ومابعدها من مناوشات بين الطرفين.

على أي حال هزم طومان باي وسيق أسيرا إلى سليم الأول الذي أشفق عليه وشمله بالتكريم وضمه إلى حاشيته، ويبدو بعد ذلك أن سليم الأول أدرك خطورة طومان باي عليه، فاتهمه أمام العلماء، وحكم عليه بالموت كشريك في مؤامرة دبرت ضده، وصُلِبَ طومان

باي على باب زويلة أحد أبواب القاهرة، وبموته انطفأت أسرة المماليك البرجية، وتحولت مصر مرة جَدِيدَة إلى مجرد ولاية بعد أن كانت حاضرة للعالم الإسلامي لعدة قرون.

obeikan.com